الباب الثاني

دراسة حياة محمد باعتباره داعية إلى الإسلام

ليس من غرضنا في هذا الباب أن نضيف شيئًا جديدا إلى ما ورد في كتب السير المتعددة عن حياة مُحَمَّد، وإنما آثرنا أن ندرس حياته من ناحية واحدة، هي التي يظهر لنا فيها النبي داعية ورسولا إلى الناس بدين جديد، وإن حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، قد يتوقع المرء أنها تقدم لنا بطبيعة الحال الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين، وإذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها لكذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام؛ لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها، ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجيء في تاريخ الدعوة بعد أناة وتفكير، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها.

وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك، وكيف كان النبي مُحَمَّد يعد نموذجا للداعي إلى الإسلام. ومن ثم لن يدخل في نطاق هذا البحث وصف أيامه الأولى، ولا المؤثرات التي خضع لها منذ نعومة أظفاره حتى بلغ سن الرجولة، فلا تتحدث عنه سياسيا ولا قائدا، وإنما الذي يعنينا أن نتعرض لحياته داعيا إلى الإسلام فحسب.

بعد أن قضى مُحَمَّد وقتا طويلا، استولى عليه نزاع نفسي وقلق، واقتنع آخر الأمر بأنه مكلف بحمل رسالة دينية من قبل الله (وجه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد) فمن هذه الحقائق البسيطة التي طلب أن يبايعوه عليها، وحدانية الخالق، ونبذ عبادة الأصنام، والتسليم لإرادة الله. وكانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به، وكانت قد خطبته لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عاما، حين كان ذلك الشاب الفقير الذي يمت إليها بالقرابة يشتغل في تجارتها أجيرا موفقا في عمله، وقالت له: «يا بن عم،

إني قد رغبت فيك لغرابتك، وسلطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك[1]» وقد انتشلته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التي أهلته لها عراقة نسبه. بيد أن هذا لم يكن شيئًا مذكورا بالنسبة إلى مشاركتها إياه في حالات قلقه النفسي في إخلاص وولاء، وشد أزره ومعاونته بأرق ما يكون من التعاطف والتشجيع في ساعة اليأس.

وكانت خديجة إلى أن توفيت سنة ٦١٩م (بعد أن قضت في حياة الزوجية خمسة وعشرين عاما). تظهر على الدوام لأن تواليه بعطفها، وتحبوه بتأييدها، وتغمره بتشجيعها، كما قاسى من اضطهاد خصومه وأعدائه، أو عذبته الشكوك والهواجس. قال صاحب السيرة:

وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس»[2].

وممن اعتنق هذا الدين أول الأمر وآمن برسالة مُحَمَّد، زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب، وكان الرسول قد تبناهما، والصديق أبو بكر، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلا: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة. ما عساكم[3] عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»، وكان أبو بكر تاجرا موسرا مبجلا في قومه، لكمال خلقه ورجاحة عقله وكفايته، أنفق بعد إسلامه جل ثروته في شراء الموالي من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين مُحَمَّد، وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأولين إلى هذا الدين، وهم: سعد بن أبي وقاص، الذي تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته،

(١) ابن إسحاق ص١٢٠.

(٢) ابن إسحاق ص١٥٥.

(٣) تأخر وانتظر.

وطلحة بن عبيد الله الذي اشتهر فيما بعد بفروسيته، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر، وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب، فقد أخذه عمه فأوثقه وقال: «أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين». فقال عثمان: «والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه»، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه.

وتلا هؤلاء قوم آخرون من بينهم طائفة من الموالي والفقراء بوجه خاص، وبذلك أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من أتباعه في السنين الأولى من البعثة. وكان لنجاح مُحَمَّد في هذه الجهود الخاصة ما حفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثرا من الأساليب الأولى، فبدأ يجهر بدعوته، وجمع عشيرته ودعاهم إلى دينه الجديد بقوله: «والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به.. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، فأحجم القوم عنه جميعا إلا عليا فقد صاح في حماسة الصبي: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه»، فقام القوم يضحكون.

ولم يثن النبي إخفاقه أول ما دعا قومه عن الدعوة في مناسبات أخرى، ولكن إنذاره لم يزدهم إلا سخرية وازدراء.

وقد حاول الكفار مرارا إقناع عمه أبي طالب زعيم بني هاشم الذي ينتسب إليهم مُحَمَّد، ليمنعه ويكفه عن سب آلهة آبائهم، وإلا اضطروا إلى اتخاذ وسائل أشد عنفا. وهنا حاول أبو طالب إقناع ابن أخيه ألا يجلب الشر على نفسه وعلى قومه، فرد عليه النبي: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك دونه، ما تركته» فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوا الله لا أسلمك لشيء أبدا».

ونظرت قريش إلى ما أحرزه الدين الجديد من تقدم بعين تزداد سخطا وكراهية يوما بعد يوم، فلجئوا إلى كل ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد، وعرضوا عليه كثيرا من شرف الدنيا وجاهها، لعله يعدل عما عقد العزم عليه. وقد قيل إن ما لقي مُحَمَّد من سوء

المعاملة كان سببا في أن يجتذب إلى جانبه شخصا عظيما دخل في الإسلام، ذلك هو عمه حمزة. فإنه عند ما سمع قصة الإهانة التي لحقت بابن أخيه واحتملها صابرا، تملكت عاطفة الغضب روحه التي جبلت على البطولة والفروسية، فأحالته من عدو عنود إلى متعصب غيور على الإسلام. ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التشكيل بالمسلمين من شفقة في نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما قاساه أولئك من اضطهاد. ولا شك أن كثيرا من الناس كانوا قد دخلوا سرا في الدين الجديد، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى يحين يوم انتصار الدين.

واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتدادا مرا حين رأوا كثرة عدد المشايعين للإسلام، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياع ما كان يتمتع بع سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ. وكان مُحَمَّد نفسه في حماية أبي طالب وبني هاشم، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي أذاعها قربهم في الناس، إلا أن قوة العصبية للقبيل التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة اعتداء على حياته، وإن كان قد ظل معرضا لأذى واعتداء كثير. أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم، وكذلك الموالي، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد، فسجنوا، وعذبوا بغية ارتدادهم عن هذا الدين الجديد.

في ذلك الحين اشترى أبو بكر بلالا[1] وأعتقه، وهو عبد حبشي كان يصفه مُحَمَّد بأنه «أول ثمار الحبشة»، وكان يقاسي أشد العذاب، فكان يلقى به في الرمضاء على وجهه وظهره، إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ثم يؤمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره، ثم يقال له: "لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، أو تعبد اللات والعزى"، فيقول بلال: «أحد أحد». ولقد مات اثنان من المسلمين من جراء ما تعرضا له من عذاب. وقد ضعفت فئة قليلة هذه المحنة، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء روح الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى. وقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين

(١) وقد ذاعت في العالم الإسلامي باعتباره أول مؤذن في الإسلام.

قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها، وكان العمل ينطوي على أشد مظاهر الجرأة التي لم يجسر عليها أحد من أتباع مُحَمَّد من قبل؛ فتعرض له قوم من قريش كانوا في أنديتهم وجعلوا يضربون في وجهه، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتا ما قبل أن يضطروه إلى الكف، ورجع إلى رفاقه، وقد أظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين: "حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون".

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذي من أجله اتخذ مُحَمَّد دار الأرقم، وهو أحد السابقين إلى الإسلام. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء. وقد استطاع الرسول أن يواصل نشر مبادئ الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة. وتعد الفترة التي قضاها مُحَمَّد في هذه الدار فترة مهمة في الدعاية الإسلامية بمكة، حتى إن كثيرا من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم.

ولما اشتد إيذاء الكفار لأتباع مُحَمَّد أشار عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة، وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٥) عبر إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة حيث لقيهم النجاشي، وكان يدين بالمسيحية، بالعطف والقبول. وكان من بينهم مصعب بن عمير صاحب القصة التي تلفت النظر، لأنها قصة الرجل الذي لم يكن بد من أن يتحمل ما يقاسيه حديث العهد بالإسلام من محن مريرة، وهي كراهة الذين أحبهم وأحبوه من قبل. وقد هدى مصعبا إلى الإسلام ما استمع إليه في دار الأرقم من تعاليم للإسلام، إلا أنه كان يخشى أن يظهر إسلامه مخافة أن يصل الخبر إلى أمه وعشيرته الذي كانوا يكنون له حبا خالصا ويناوؤن هذا الدين الجديد مناوأة شديدة؛ فما إن اكتشفوا حقيقة الأمر حتى أخذوه فحبسوه ولكنه أفلح في الهرب إلى أرض الحبشة.

ويقال إن سخط قريش بهؤلاء الهاربين حتى بأرض الحبشة؛ فأرسلوا الرسل يطلبون من النجاشي إخراجهم من هذه البلاد، ولكنه بعد أن سمع من المسلمين قصتهم أبى أن يكف عنهم حمايته، فقد قالوا له ردا على ما وجه إليهم من أسئلة عن حقيقة دينهم:

"كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل اليتيم وقذف المحصنة؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألانظلم عندك».

عندئذ قبل النجاشي ورجع رسل قريش مقهورين[1]. وفي تلك الأثناء قام المكيون بمحاولة جديدة لإغراء النبي بالمال والجاه حتى يترك دعوته، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعا في هذه السبيل.

وفي الوقت الذي كان المسلمون في مكة يرقبون بشغف كبير نتيجة بعثة قريش إلى الحبشة، حدث أن دخل في الإسلام رجل كان من أشد أعداء مُحَمَّد وأصلبهم مقاومة وتعصبا، رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين على أنه أخطر أعدائهم وألدهم، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد، وكان من أنبل الرجال في صدر الإسلام، ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب؛ ففي ذات يوم خرج في سورة الغضب متوشحا بسيفه يريد قتل النبي، فلقيه أحد أقاربه وهو في طريقه إلى النبي وسأله أين يريد؟ فقال: «أريد مُحَمَّدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسب آلهتنا فأقتله». فقال له: «أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟» قال: «وأي أهل بيتي؟» قال: «وختنك وابن عمك سعيد وأختك فاطمة» فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب (بن الأرت) أحد أتباع مُحَمَّد، وكان

(1) ابن إسحاق ص٢١٩– ٢٢٠. ولم يتعرض الطبري لذكر هذه البعثة، ومن ثم يزعم كيتاني **Caetani** (في الجزء الأول ص٢٧٨) أنها وضعت فيما بعد.

يعلمهما الدين، ومعه صحيفة يقرئهما إياها، فدخل عمر عليها فقال: «ما هذه الهمهمة التي سمعتها عندكم؟» قالا: «ما سمعت شيئًا» قال: «بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما مُحَمَّدا على دينه» وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة، لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فصاحت في وجهه: «نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله له فاصنع ما بدا لك". فلما رأى عمر ما بأخته من الدم من أثر ضربته رق لحالها، وسألها أن تعطيه هذه الصحيفة التي سمعهم يقرءونها آنفا، وبعد تردد أعطته إياها، وهي تشتمل على السورة العشرين من القرآن، فقرأها عمر وقال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» وإذا بالإيمان يغمره فيصيح: «دلني على مُحَمَّد حتى آتية فأسلم" [1].

وبعد إسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الإسلام؛ فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكا أشد جرأة، فترك مُحَمَّد دار الأرقم، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة. وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سببا قويا في إثارة مخاوف أشراف مكة. ذلك أنهم أصبحوا لا يطيقون الحياة مع شرذمة من المنبوذين، المحقرين، المضطهدين الذين يجاهدون لكي يعيشوا عيشة ضعف وبؤس. إنهم كانوا عصبة قوية، يكثر عددهم يوما بعد يوم ممن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان، ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبي قوي.

فلما رأت قريش ذلك عقدت النية على القيام بعمل حاسم يحول دون نمو هذه الحركة الجديدة في البلاد، فتحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم وهم الذين حموا للنبي لما بينه وبينهم من صلة النسب، وتعاهدوا على أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم من أنفسهم، ولا يتاجروا معهم، وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم، وقد قيل إن بني هاشم قد أقاموا على ذلك ثلاث سنين مهجورين في شعب من شعاب مكة، إلا في الأشهر الحرم حيث حرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن

(١) ابن إسحاق ص٢٢٥-٢٢٦.

الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التي كانت تعد مركز ديانة العرب في ذلك الحين.

وكان مُحَمَّد يجعل من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة وما جاورها من الأسواق، ولكنه لم يصادف نجاحا في هذه السبيل، لأن عمه أبا لهب كان قد تعود أن يتعقبه ويصيح بأعلى صوته: «إنه لصابئ يريد أن تسلخوا دين آبائكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له» فيردون عليه ردا قبيحا ويقولون له: إن قومك وذوي قرابتك هم أعرف الناس بك، فلم لم يؤمنوا بك ويتبعوك؟ وكان ما ذاقه مُحَمَّد وذوو قرابته من العذاب والحرمان قد أثار آخر الأمر شفقة جماعة كبيرة من القرشيين فنقضوا حلفهم.

وفي هذا العام أصيب الرسول بوفاة خديجة، تلك الزوجة الوفية التي ظلت زهاء خمسة وعشرين عاما تمده بالرأي والتأييد، فحزن عليها حزنا عميقا، وبعد ذلك بقليل توفي عمه أبو طالب، فحرمه موتهما من أشد حماته ثباتا وقوة وعرضه لإهانة قريش وأذاها من جديد.

ولما قوبلت دعوة مُحَمَّد بالإهانة والسخرية من أهل مكة الذين حمل رسالته إليهم زهاء عشر سنوات دون أن يصادف فيها نجاحا يذكر، عزم على البحث عن قوم آخرين يكونون أكثر استعدادا لقبول دعوته، ويجد في بلدهم تربة أشد خصبا وصلاحية يستطيع أن يلقى فيها بذور هذا الدين؛ فانطلق على هذا الأمل إلى مدينة الطائف، وهي على سبعين ميلا من مكة، ودعا فريقا من أشرافها إلى وحدانية الله، وأخبرهم أنه مكلف من قبل أداء رسالته ليعلم هذا الدين، وطلب في الوقت ذاته أن يحموه ممن اضطهدوه في مكة، إلا أن عدم التناسب بين مطالبه السامية (التي لم تتقبلها أهل الطائف الوثنيين) وبين حالته التي أصبحت تبعث على اليأس، لم تثر في نفوسهم غير السخرية والاستهزاء، فرموه بالحجارة في غير رحمة، وأخرجوه من ديارهم.

وقد وجد مُحَمَّد عند عودته من الطائف أن أمله في النجاح قد أصبح أضعف منه في أي وقت مضى وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي أوردها على لسان نوح: {قَالَ

رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ({قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦)} [سورة نوح: ٥-٦]) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا[١] وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)} [سورة نوح: ٥-٧].

وكان من عادة النبي أن يتردد في موسم الحج على القبائل العربية المختلفة في خيامهم ويحدثهم في الدين. وكان بعضهم يقابل عباراته بشيء من عدم الاكتراث، ويقابلها بعضهم الآخر بالسخرية والاستهزاء، حتى أتاه الفرج من جهة لم يكن يتوقعها. فقد التقى بفئة قليلة، ستة نفر أو سبعة. وعرف أنهم قادمون من المدينة أو يثرب، كما كانت تسمى في ذلك الحين. فقال لهم مخاطبا: «من أنتم؟» قالوا: «من الخزرج» قال «أمن موالي يهود؟ فأجابوا «نعم» قال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟» قالوا: «بلى». وعندئذ جلسوا فدعاهم إلى الله الحق، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم لأجل الإسلام أن يهودا كانوا معهم ببلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان أولئك أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غلبوهم في بلادهم، فكانوا إذا شجر بينهم نزاع قالوا لهم، «إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم». فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: «تعلمن والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه». فأجابوا فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوه منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنتقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين»، وهكذا رجعوا إلى بلادهم يغمرهم الإيمان[٢].

تلك هي القصة السائرة عن هذا الحادث الذي كان نقطة التحول في بعثة مُحَمَّد، فقد لقي الآن قوما كان أسلافهم قد هيئوا عقولهم إلى حد ما لتقبل تعاليم النبي، وكانت

---

(١) أي على خطيئتهم

(٢) ابن إسحاق ص٢٨٦- ٢٨٧.

أحوالهم إذ ذاك، كما دلت الحوادث فيما بعد، ملائمة لقبول دعوته.

وقد أقام اليهود بمدينة يثرب زمنا طويلا، ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على أثر هذه الكارثة القومية التي نزلت بهم باضطهاد أدريان **Hardian**. وفي ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من البدو المهاجرين، وهم الأوس والخزرج من قبائل العرب، وسمح لهما بالإقامة في رقعة هذه المنطقة. ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئًا فشيئًا حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم، وذلك في نهاية القرن الخامس الميلادي.

وكانت طائفة من العرب قد اعتنقت اليهودية، وظل كثير من سادة المؤمنين الأصليين يقيمون فيها في خدمة هؤلاء الفاتحين، حتى إن المدينة كانت في زمن مُحَمَّد تضم عددا عظيما من اليهود. وكان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح الذي ينتظرون عودته، ومن ثم كانوا أقدر على فهم دعوى نبوة مُحَمَّد من أهل مكة الوثنيين فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة، ومبغضة إلى قلوب القرشيين منهم بخاصة، وهم الذين كانت سيادتهم على سائر القبائل وحالة الرخاء المادي التي تمتعوا بها راجعة إلى أنهم قد ورثوا حراسة هذه المجموعة من الأوثان العربية التي احتفظوا بها في حرم الكعبة المقدسة.

زد على ذلك أن مدينة يثرب كانت مشغولة بنزاع داخلي دائم بسبب الخصومة التي قامت بين الأوس والخزرج. وعاش أهل يثرب في قلق واضطراب. وما من شيء يمكن أن يربط هذه الأحزاب المتناحرة برباط من المصلحة المشتركة إلا كان خيرا لهذه المدينة. وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية في القرون الوسطى قد آثرت أجنبيا ليقبض على زمام الأمور في مدنهم حفظا للتوازن بين قوى الأحزاب المتنافسة ومنعا للصراع الداخلي الذي كان مفسدا للتجارة والشئون العامة، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبي نظرة تنطوي على شيء من الريبة، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسلم زمام هذه السلطة.

ويظهر أن من أسباب الترحيب الحماسي الذي لقيه مُحَمَّد في المدينة أن الدخول في

الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها بنظامه الرتيب في الحياة، وجعل أمور الناس الصعبة خاضعة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية[١].

وإن هذه الحقائق لتفسر لنا إلى حد بعيد كيف استطاع مُحَمَّد أن يدخل مكة بعد ثماني سنوات من الهجرة على رأس عشرة آلاف من أتباعه، تلك المدينة التي جاهد فيها من قبل جهادا قليل الثمرة مدة عشر سنوات.

وكان مُحَمَّد قد رغب من قبل أن يصحب الحجاج من الخزرج، الذين تحولوا حديثا إلى الإسلام على يديه إلى يثرب، ولكنهم وعدوه ذلك بعد أن يتم الصلح بينهم وبين الأوس، وقالوا: «دعنا نرجع إلى قومنا عسى الله أن يجعل السلم بيننا وسنعود إليك، وموعدنا موسم الحج في العام المقبل». وهكذا رجعوا إلى ديارهم ودعوا قومهم إلى الإسلام، فاستجاب لهم كثير، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله.

حتى إذا وافى موسم الحج وافاه من يثرب يتألف من عشرة رجال من الخزرج واثنين من الأوس عند العقبة، وهي المكان السري المتفق عليه، وتعاهدوا على بيعته. وهذا هو نص بيعة العقبة الأولى: «على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف». ورجع هؤلاء الإثنى عشر رجلا إلى يثرب دعاة إلى الإسلام؛ وقد انتشر هذا الدين الجديد فيها انتشارا سريعا، من دار إلى دار، ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة في تأدية رسالتهم.

وقد صحبهم مصعب بن عمير وهم راجعون إلى المدينة، وفي رواية أن الرسول أرسله إجابة لكتاب بعثه الأنصار من يثرب. وكان هذا الشاب من السابقين إلى الإسلام، وقد عاد أخيرا من الحبشة، ومن هنا كسب خبرة واسعة. وإن التجربة القاسية التي لاقاها

---

(١) Caetani, t, I, P.334-5

في مدرسة الاضطهاد لم تضعف من حماسته، بل علمته يقاوم الاضطهاد، وكيف يعامل هؤلاء الذين كانوا يغضون من شأن الإسلام قبل أن يتبينوا وروحه وتعاليمه. واستطاع مُحَمَّد أن يوليه كل ثقته، ويعهد إليه في هذه المهمة الشاقة، وهي مهمة إرشاد الذين دخلوا حديثا هذا الدين وتعليمهم، وتعهد بذور الحماسة والعبادة الدينية التي ألقيت من قبل حتى آتت ثمارها. واتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مقاما له، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحيانا، وأحيانا أخرى في دار بني ظفر، في حي من أحياء المدينة، حيث كانت تقيم فيه هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل.

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير شيخي بني عبد الأشهل في ذلك الحين. وقد حدث ذات يوم أن مصعبا كان يجلس مع أسعد في دار بني ظفر، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثا، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم وقال لأسيد بن حضير: «لا أبا لك؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وأنهما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت لكفيتك» (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد). عندئذ تناول أسيد حربته وانطلق إلى أسعد ومصعب» ثم صاح بهما: «ما جاء بكما إلينا؟ أتسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة». فأجاب مصعب في هدوء: «أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته فكف عنه». فركز أسيد حربته في الأرض وجلس إليها يسمع، ومصعب يشرح له مبادئ الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات من القرآن. وصاح بعد برهة مأخوذا: «كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟» فأجابه مصعب: «فتغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله، فاستجاب أسيد لساعته، ورد شهادة الإسلام ثم قال: إن ورائي رجلا (يشير إلى سعد بن معاذ) أن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن».

عند ذلك انصرف، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ ثائرا غضبا على أسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه، عندئذ رضي أن يصغي إلى كلام مصعب. وسرعان ما أثر فيه، وحمل الإقناع إلى قلبه، فدخل في

الدين، وأصبح من المسلمين. ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم: «يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ فقالوا: «سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة» فقال سعد: «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، ومنذ ذلك الحين أسلم كل آل عبد الأسهل[1].

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدما، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين، لا نستثني إلا فرعا من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر.

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدما، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين، لا نستثني إلا فرعا من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر.

وما إن وافى موسم الحج التالي حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين الذين أسلموا حديثا قاصدين مكة، وكان يصحبهم مواطنوهم من المشركين. وقد عهد إليهم دعوة النبي بالمهاجرة إلى يثرب اعتصاما بها من حنق الخصوم، وقد قدموا ليبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم. وفي هذه المناسبة العظيمة عاد إلى مكة كل المسلمين الأولين الذين اجتمعوا بالنبي في الموسمين السابقين، وكان يرافقهم شيخهم مصعب، وقد بادر على أثر وصوله بالذهاب إلى النبي، وإخباره بما أصابه من نجاح في نشر الدعوة إلى الإسلام. ويقال أن أمه لما سمعت بمقدمه بعثت إليه تقول: يا عاق، أتقدم بلد أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه؛ فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد، قال: أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله، قالت: ما شكرت

---

(١) ابن إسحاق ص٢٩١ وما يليها.

ما رئتيك مرة بأرض الحبشة ومرة يثرب فقال: أفر بديني أن تفتنوني فأرادت حبسه، فقال: لئن حبستني لأحرصن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت نبكي، فقال مصعب: "يا أمة إني لك ناصح عليك شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا عبده ورسوله" قالت: "لا أدخل في دينك فيزري برأيي، ويضعف عقلي، ولكن أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني".

وقد دبر اجتماع سري بالعقبة، وهو ذلك المكان الذي لقي فيه النبي أهل يثرب من المسلمين في العام الماضي، وإنما اختار النبي هذا الموضع حتى لا يثير شك قريش ولا يستهدف لعداوتها. جاء مُحَمَّد لا يرافقه إلا عمه العباس الذي كان يعلم أمر هذا الاجتماع مع أنه كان لا يزال على الشرك. وكان العباس أول من تكلم في الاجتماع، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه في عز من قومه ومنعة في بلده. على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب، فينبغي أن يتدبر مليا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له، ومنعه ممن يخالفونه، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا الخطر، عندئذ أكد البراء بن معرور أحد الخزرج أنهم صادقون في عزمهم، وأنهم عولوا على منعة نبي الله، وطلب إلى النبي أن يتكلم في صراحة وأن يأخذ لنفسه ولربه ما أحب.

وبدأ مُحَمَّد بتلاوة بعض آيات القرآن، ودعوتهم إلى الله ورسوله، وترغيبهم في الإسلام، ثم طلب منهم أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعوا منه أزواجهم وابناءهم. وعلى أثر ذلك أمسك البراء بن معرور بيده وقال: «والذي بعثك بالحق، لنمنعك ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر» وهكذا بايعوه واحدا بعد واحد.

ولم تكن قريش تفطن إلى ما يجري في الخفاء حتى استأنفوا التنكيل بالمسلمين من جديد. فنصحهم مُحَمَّد بالفرار من مكة، قائلا: «هاجروا إلى يثرب، فإن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها». ومن ثم هربوا مستخفين مثنى وثلاث إلى المدينة. وهناك قوبلوا بترحاب عظيم، وتسابق إخوانهم في الدين إلى شرف دعائهم وقضاء مآربهم.

ولم يمض شهران حتى كان عامة المسلمين تقريبا قد غادروا مكة، وكانوا نحو مائة وخمسين عدا الذين أخذوا وحبسوا والذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر، وقد حكي عن أحد هؤلاء المسلمين، واسمه صهيب، وكان النبي يطلق عليه «أول ثمار الروم» (وكان عبد روميا، فلما أعتقه مولاه احترف التجارة وجمع منها ثروة كبيرة) لما شرع في الهجرة قال له أهل مكة: "أتيتنا ها هنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا وبلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؛ والله لا يكون ذلك"، فقال: "أرأيتم إن تركت مالي أتخلون أنتم سبيلي؟" قالوا: "نعم"، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ النبي (ص) فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب"

وتخلف مُحَمَّد فلم يهاجر (ولا شك أنه كان يقصد بذلك صرف الأنظار عن أتباعه المخلصين) حتى حدثت مؤامرة مدبرة لاغتياله، فتنبه أنه سيعرض نفسه للموت إن أطال مكثه بعد ذلك، فاحتال الفرار.

وكان أول ما عني به مُحَمَّد بعد أن دخل يثرب (المدينة) كما سميت منذ ذلك الحين – أي مدينة النبي – أن يبني مسجدا ليكون مقاما للصلاة ومجمعا عاما لأصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم، وكان المصلون تعودوا في العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود. وقد حاول مُحَمَّد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية؛ ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية. فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون مُحَمَّدا نبيا لهم، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة (سورة ٢ آية ١٤٤)[١].

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة، إذ كان ذلك في الواقع بداية الحياة القومية في الإسلام: فجعل من الكعبة في مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة،

(١) ولا شك أن فرض صيام رمضان (سورة ٢ آية ١٧٩–١٧٤) مظهر آخر من مظاهر نبذ اليهود إذ به أبطل صيام يوم عاشوراء.

كما كانت تماما في الأزمان الغابرة مقصدا لحج القبائل العربية جميعا. ونظير ذلك في الأهمية ما كان من جعل الحج إلى مكة، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الإسلام، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل في حياته.

وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القومي، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما مسحوه من فضل بنزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم.

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف:٣]

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى:٧]

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} [فصلت:٤٤]

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)} [سورة الزمر: ٢٧-٢٨].

{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)} [سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم:٩٧].

ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها [١]. ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي

---

(١) ولكن الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعا مطلقا، ولقد كان لمحمد، بوصفه رسولا من الله، حق المطالبة بهذه الطاعة، وكان عليه أن يطالب بها. وهذا ما ظهر من أول الأمر جزءا لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادئ.
(Sachau, PP.203-4), Goldzher (Vorlesungen uber den Islam, P.25 sqq) and Noldeke (WZKM. Vol. xxi.pp. 307-8) وكل منهما يرى رأيا مماثلا لما زعمه سخاو

جميع الشعوب: نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي قيل إن مُحَمَّدا بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٢٨م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر. وفي هذه السنة أرسل الرسول كتبا إلى هرقل قيصر الروم، وإلى كسرى فارس، وإلى حاكم اليمن، وإلى حاكم مصر، وإلى النجاشي. وقد قيل إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم.. من مُحَمَّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتولى فإن إثم الأكارين عليك، "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضربا من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء[1]. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام، فقد قال الله تعالى:

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)} [سورة ص: ٨٧-٨٨]. { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)} [سورة يس: ٦٩-٧٠]. {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]. {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان:١] {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ:٢٨]. {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف:٩].

وفي ساعة من ساعات اليأس العميق، عندما كان أهل مكة يمعنون في النفور من كلام النبي (سورة ١٦ آية ٤٣، ١١٤إلخ)، وعندما عذبوا من هداهم النبي إلى الإسلام

---

(١) انظر: **Caetani**: ٧٢٥ وما يليها للوقوف على مدى الشك في صحة هذه الكتب.

حتى كفروا من بعد إيمان (سورة ١٦، آية ١٠٨)، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة في الله من بعد ما ظلمهم مضطهدون (سورة ١٦: آية ٤٣، ١١١)، عند ذلك تلقى النبي الوعد، {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} [النحل:٨٤][١].

وإن ما يخبر به النبي في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام دينا ليزداد وضوحا في قول مُحَمَّد متنبئًا، أن بلالا «أول ثمار الحشبة»، وأن صهيبا «أول ثمار الروم». أما سلمان، وهو أول من أسلم من الفرس، فقد كان عبدا نصرانيا بالمدينة اعتنق الإسلام في السنة الأولى من الهجرة، وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الرسول ليس مقصورا على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة، وهي «أن رسول الله قال لأصحابه»، «وافوني بأجمعكم بالغداة"، وكان إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلا، يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم: "انصحوا الله في عباده، فإنه من استرعى شيئًا من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة؛ انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد. فأصبحوا يعني الرسل وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم، فذكر بذلك للنبي فقال: "هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده»[٢].

---

(١) ومن الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون دينا عالميا برغم هذه الآيات البينات، ومن بينهم السير وليم ميور إذ يقول: «إن فكرة عالمية الرسل قد جاءت فيما بعد، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تزيدها، لم يفكر فيها مُحَمَّد نفسه. وعلى فرض أنه قد فكر فيها، فقد كان تفكيره تفكيرا غامضا، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن مُحَمَّدا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا العرب دون غيرهم. وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخط والمناهج The Caliphate, PP.43-4؛ وكيتاني آخر من يؤيد هذا الرأي Annali dell Islam, vol. v.pp.

(٢) ابن سعد ١٠ . وقد يشك البعض، وربما كانوا على حق، في صحة هذه القصة، ولكنها على أقل تقدير تدلنا على إدراك السابقين الصفة التشهيرية في الإسلام.

ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان مُحَمَّد «خاتم النبيين» (سورة ٣٣: آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل.

{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس:١٩].{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:٩].{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة:٢١٣].{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:١٢٣].{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام:١٦١]. {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة:١٣٥]. {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)} [سورة آل عمران: ٩٥-٩٦]. {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء:١٢٥].{هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ} [الحج:٧٨].

ولنعد الآن إلى تتبع حياة مُحَمَّد في المدينة، ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديرا حقيقيا، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شبه الجزيرة. لم يكن يوجد إطلاقا أي منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث. كانت كل قبيلة أو عشيرة

تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال. وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزا لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب؛ بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته. وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس، إذ كان يختار لها غالبا أكبر أفراد القبيلة سنا، وأكثرهم مالا، وأعظمهم نفوذا، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي. وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية، اشتراكا في الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة.

ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن مُحَمَّد من أن يجعل نفسه، في المدينة، وعلى رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيما وقائدا، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه، دون إثارة أي شعور من القلق، أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها، كما كان ينتظر أن يحدث في مدينة إغريقية قديمة، أو في أي مجتمع منظم يماثلها. وهكذا باشر مُحَمَّد سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام – ولو من الوجهة النظرية على الأقل كما سن دائما – نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام ديني.

كانت رغبة مُحَمَّد ترمي إلى تأسيس دين جديد، وقد نجح في هذه السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تاما. وكانت رغبته بادئ الأمر مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله. إلا أنه بجانب ذلك على هدم نظام الحكومة القديم في مكة مسقط رأسه، وأقام حكومة دينية مطلقا، وقام هو على رأسها خليفة لله في الأرض بدلا من حكومة الأرستقراطية القبلية، التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها.

«وقبيل وفاة مُحَمَّد نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا تدين له بالطاعة، وإذا ببلاد

العرب التي لم تخضع إطلاقا لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق، ومن تلك القبائل المتنوعة، صغيرها وكبيرها، ذات العناصر المختلفة التي قد تبلغ المائة والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر، خلقت رسالة مُحَمَّد أمة واحدة، وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب. وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، ذلك هو مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية، وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة، وإن لم يقض عليه نهائيا (إذا كان ذلك مستحيلا)، شيئًا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعند ما انتقل مُحَمَّد إلى جوار ربه وكانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة، بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر، وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل إلى هذا الائتلاف[1].

حتى عند وفاة المسلم نرى دعوى القرابة تطرح جانبا، فيرث الأخ في الدين كل ما يملك صاحبه المتوفى، ثم ألغي هذا النظام بعد غزوة بدر حين لم يعد هذا الرباط المصطنع ضروريا لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول، وإنما كان مثل هذا النظام لازما حينما كان عدد المسلمين قليلا وكانت حياة التضامن ظاهرة جديدة. زد على ذلك أن مُحَمَّدا قد قضى في المدينة فترة قصيرة جدا قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية في النظام الاجتماعي أمرا ليس من اليسير تحقيقه من الناحية العملية. ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجري مكة، وتقيم في مدينة تضمر لهم العداء، إلا أن يؤدي هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين. وكان هو مشهور معروف فإن كل كتاب من كتب السيرة حافل بروايات تتعلق بسلسلة طويلة من المناوشات الصغيرة والمعارك الدامية، التي قامت بين أتباعه وبين القرشيين من أهل مكة، وانتهت بدخوله المظفر في هذا البلد سنة ٦٣٠م، كما حفلت هذه الكتب بما كان بين الرسول وبين القبائل الأخرى من علاقات عدائية ظلت قائمة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ٦٣٣م (١١هـ).

---

(١) A.Von Kremer (3), pp.3c9, 310.

وإن وصف هذه الغزوات لا يدخل في نطاق هذا الكتاب، وإنما المهم أن نبين كيف أن مُحَمَّدا عند ما رأى على رأسه جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد، من داعية مسالم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع [1].

وقد أكد الكتاب الأوربيون مرارا أن النبي سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحي إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصبا مندفعا يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه.

على أنه من الخطأ أن نفترض أن مُحَمَّدا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدي؛. فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام. وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبليغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بذلك كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة. ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة للهجرة. فقد زار أبو البراء عامر شيخ هذه القبيلة مُحَمَّدا في المدينة، واستمع إلى تعاليمه، ولكنه لم يشأ أن يعتنق الإسلام. ومع ذلك أظهر شيئًا من العطف نحو هذا الدين الجديد، وطلب إلى النبي أن يرسل بعض أتباعه إلى نجد لينشر

---

(١) ويظهر أن هذا الرأي قد صرح به بعض الباحثين ولا سيما الأستاذ ميور عند ما تحدث عن مذبحة بني قريظة التي وقعت في السنة السادسة للهجرة فقال: «إن الدعائم التي سار عليها مُحَمَّد عندما كانت سياسية محضة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه» (Muir (2) vol iii, p. 282).

تعاليم الدين بين أهالي هذه البلاد. فأرسل النبي جماعة تتألف من أربعين مسلما معظمهم من شباب المدينة، الذين حذفوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلا للدرس وإقامة الصلاة، ولكنهم قتلوا غدرا بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم[١].

ومع ذلك فقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفرادا من شتى القبائل ولا سيما من كان يقيم منهم في جوار المدينة لتزداد بهم صفوف أتباع النبي. وإن «المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين.. كل ذلك جعل اسمه مألوفا لديهم، كما جعل صيته ذائعا في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدا وعظيما ورجلا كريما[٢]. وكثيرا ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعيا إلى الإسلام جادا في تحويل إخوانه إليه، وفي القصة التالية مثل من أمثلة ذلك التحول إلى الإسلام، وذلك في السنة الخامسة للهجرة.

بعثت بنو سعد بن بكر واحدا منها يقال له ضمام بن ثعلبة رسولا إلى النبي؛ فقدم وأناخ بخيره على باب المسجد عقله، ودخل المسجد حيث كان النبي جالسا في أصحابه، فأقبل حتى وقف عليهم وقال: «أيكم ابن عبد المطلب»؟ فقال النبي: «أنا بن عبد المطلب»، قال: «أمحمد؟» قال «نعم»؟ قال: «إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك». قال: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك» قال: «أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولا؟» قال محمد: «اللهم نعم». قال: "فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون

---

(١) ابن إسحاق ص٦٤٨ وما يليها.

(٢) أن ازدياد Muir (2), vol, iv. Pp.107-8. See also Caetani. Vol. i.p.663.

معه؟» قال مُحَمَّد «اللهم نعم». وبعد ذلك سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها، عن الصلاة والصيام والحج إلخ، وهو يستحلفه مثل ما سبق، وأخيرا قال: «... فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَمَّدا رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص». ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه. فلما جمعهم كان أول ما قال لهم: «بئست اللات والعزى» قالوا «مهيصا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون»، قال "ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران.. إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن مُحَمَّدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه». ومازال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالا ونساءً [1].

وقد كان عمرو بن مرة أحد أفراد قبيلة بني جهينة التي كانت تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلا لهؤلاء الدعاة؛ فقد كان إسلامه قبل الهجرة من العام نفسه (٥هـ). وقد وصف إسلامه بقوله: «كان لنا صنم وكنا نعظمه، وكنا سادته، فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام، فذلك حين أقول:

شـــــهدت بأن الله حـــــق وإنـــــني ... لآلهـــــــة الأحجــــــــــار أول تارك

وشمــرت عــن ســاقي الإزار مهــاجرا ... إليــك، أجــوب الوعــث بعــد الـدكاءك

لأصـحب خـير النـاس نفسـا ووالـدا ... رسـول مليـك النـاس فـوق الحبائـك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب في الإسلام، فتكللت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى على الترغيب[2].

---

(١) ابن إسحاق ص ٩٤٣-٩٤٤ وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر مشكوك في صحتها، انظر **Caetani, vol, i. p.610**.

(٢) ابن سعد ١١٨.

ولما جعل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة الصلات الودية مع أهل مكة أمرا ممكنا، خرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذه البلد الذين كانوا قد أتيحت لهم فرصة الاستماع لدعوة مُحَمَّد في مستهل بعثته، ومن هؤلاء رجال من ذوي النفوذ والسلطان.

وكانت الحروب المتصلة التي شنها الرسول على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي كانت تقيم جنوبي هذه المدينة بعيدين بعدا يكاد يكون تاما عن سلطان الدين الجديد، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمرا ميسورا في ذلك الحين، فجاء وفد صغير من قبيلة بني دوس من تلك الجبال التي تتاخم بلاد اليمن وانضموا إلى النبي في المدينة. ونجد قبل ظهور مُحَمَّد بقليل جماعة من هذه القبيلة مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم، وكانوا يرون أن هذا العالم لا بد له من خالق، ولو أنهم لم يهتدوا إليه. فلما بعث مُحَمَّد رسولا من قبل هذا الخالق، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق.

وبالرغم من أن قريشا حذرته مما قد يتركه مُحَمَّد في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه، فقد تبع النبي إلى بيته بعد أن رآه يصلي في الكعبة، فشرح له النبي تعاليم الإسلام، وقد أصبحت نفس طفيل تفيض تحمسا لهذا الدين الجديد. فلما رجع إلى بلده أفلح في هدي أبيه وزوجه، ولكنه وجد قومه غير راغبين في ترك عبادتهم الوثنية القديمة. فعاد النبي وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس، ولكن النبي شجعه على المثابرة بقوله: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم». وفي الوقت نفسه دعا لهم النبي بقوله: «اللهم اهد دوسا». وقد بلغ من نجاح طفيل في بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة في السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه، وبعد أن دخل النبي مكة دخول الظافر أشعل طفيل النار في كتلة من الخشب، وهي الصنم

الذي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين[١].

وفي السنة السابعة للهجرة دخلت خمس عشرة قبيلة أخرى في طاعة النبي، ثم تمت الغلبة للإسلام بعد فتح مكة في السنة الثالثة للهجرة، وبادر إلى مبايعته على هذا الدين الجديد هؤلاء العرب الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون: «دعوا مُحَمَّدا يقاتل قومه نجح فهو نبي حقا»[٢]. ومن هؤلاء الذين وفدوا على النبي بعد فتح مكة طائفة كانوا أشد الناس اضطهادا للنبي في الأيام الأولى من بعثته، ولكنه بوأهم بصبره الجميل وعفوه الكريم مكانا من الأخوة الإسلامية.

وشهدت السنة التالية استشهاد عروة بن مسعود أحد زعماء أهل الطائف، تلك المدينة التي حاول المسلمون أن يستولوا عليها دون جدوى. فقد كان عروة في ذلك الحين غائبا باليمن، ثم رجع من رحلته بعد الحصار بقليل، وكان قد قابل النبي في الحديبية قبل ذلك بعامين وبالغ في تعظيمه، والآن يفد على المدينة ليعتنق الدين الجديد، وقد تطوع بدافع حماسته الملتهبة للذهاب إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام. وعلى الرغم مما بذله النبي من جهود في ثنيه عن هذه المهمة الخطيرة، رجع إلى بلده، وأعلن نبذ عبادة الأصنام، ثم دعا الناس إلى الاقتداء به. وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلا، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد، وبعد سنة تقريبا قام صحابي آخر بنشر الدعوة في اليمن، وكان أكثر توفيقا في هذه السبيل. وفيما يلي وصف دقيق عن هذه الدعوة: «كتب رسول الله إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير. «سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. وقالت اليهود «عزير ابن الله» وقالت النصارى «الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله». (قال): وبعث بالكتاب مع عياش ابن ربيعة المخزومي، وقال:

"وإذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلا حتى تصبح، ثم تطهر فأحسن طهورك وصل

---

(١) ابن إسحاق ص٢٥٢-٢٥٤.

(٢) Caetani, vol.ii. t,I p.341.

ركعتين، وسل الله النجاح والقبول واستعذ بالله وخذ كتابي بيمينك، وادفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون واقرأ عليهم: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة:١]. فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين، فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره، وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل «ترجموا» وقل «حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير». فإذا أسلموا فلهم قضبهم الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا وهي من الأثل، قضيب ملمع ببياض وصفرة، وقضيب ذو عجر كأنه خيرزان، والأسود البهيم كأنه من سأسم ثم أخرجها فحرقها بسوقهم». قال عياش «فخرجت أفعل ما أمرني رسول الله حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم. قال فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط، فانتهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت: أنا رسول رسول الله، وفعلت ما أمرني فقبلوا وكان كما قال النبي ﷺ)[١].

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي ثلاثة عشر رجلا من بني كلاب، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد[٢]. كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهم بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك، وكان في المدينة، واعتنق الإسلام ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء بهم [٣].

وفي هذه السنة نفسها قام رجل حديث العهد بالإسلام وهو واثلة بن الأسفع بمحاولة لم تصادف نجاحا كبيرا، إذ أخذ يرغب قومه في الإسلام، وكان قد اعتنقه بعد أن

---

(١) ابن سعد ٨٥

(٢) نفس المرجع ٨٦.

(٣) نفس المرجع ٩١.

لقي النبي مرة، وكان قد طرده أبوه في احتقار وازدراء وقال له: «والله لا أكله أ بدا، ولم يجد راغبا فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته جهزته للرجوع إلى النبي بالمدينة، وكانت تسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود لأن عددا كبيرا من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي وفادات تعلن خضوعها وتسليمها، وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة القبلية القديمة، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدما لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكيك النظام القبلي وتركه ضعيفا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كذلك الحياة التي صار إليها المسلمون.

وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبي، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعفا عديم التأثير[١]. وكان مُحَمَّد قد أفلح في أن يدخل في مجتمع عصره الذي كان مليئا بالفوضى وسوء النظام شعورا بالوحدة القومية وإدراكا للحقوق والواجبات، كل نحو الآخر، على نحو لم يعرفه العرب من قبل [٢] وبهذه الطريقة كان الإسلام يوحد بين عشائر كانت حتى ذلك الحين في نزاع مستمر بعضها مع بعض. وبينما كان هذا الاتحاد العظيم ينمو ويطرد، نراه في الوقت نفسه يجتذب المستضعفين من قبائل العرب شيئًا فشيئًا، وكثيرا ما نجد في القصص التي وردت عن إسلام القبائل العربية ذكر ما كان يعدهم به النبي من حمايته إياهم من أعدائهم، تلك الوعود التي كانت تبذل لهم في حالة تسليمهم لدعوته. وقد عبر أحد أفراد القبائل العربية عن حزنه عندما بلغه خبر وفاة النبي بقوله: "واأسفاه على مُحَمَّد، لقد عشت في سلام وأمن من أعدائي ما كان حيا".

ولا بد أن تكون هذه الصيحة قد وجدت صدى بعيدا في كافة أرجاء الجزيرة

---

(١) انظر Spreger, vol.iii. pp. 360- 361.

(٢) Caetani, vol. ii, p.433.

العربية. وربما كان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشارا واسعا بعد وفاة الرسول مباشرة دليلا على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للإسلام، والظاهر أن قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف، أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية. فقد سمحوا لأنفسهم أن ينجرفوا في هذا التيار الذي كان قد أصبح في ذلك الحين حركة قومية عظيمة، وهنا لا نلمس في هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة تلك الحماسة الدافقة التي كنا نجدها لدى السابقين إلى الإسلام، إلا أنه ظهر من بين هؤلاء كثيرون زادوا في صفوف المؤمنين الخلص مدفوعين بحماسة حقيقية في إعلاء شأن الدين، ومستعدين، كما رأينا، لبذل نفوسهم في سبيل بث الدعوة بين إخوانهم. وكان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين، ورسل الإسلام فيما بعد، والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على مُحَمَّد. لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير، هو في الواقع أسمى وأرقى ما ألفوه من قبل بين إخوانهم.

«كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين، ورسل الإسلام فيما بعد، والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على مُحَمَّد. لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير. هو في الواقع أسمى وأرقى مما ألفوه من قبل. إنهم انتقلوا في الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا عليها من جميع الوجوه. وفي أحرج أوقات مُحَمَّد وتعاليمه كانت قد ألقت بزورها في تربة خصبة، فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا؛ فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب، وهم الحواس المتحمسون لحفظ كل ما روى عن النبي من كلام ووصايا، والأمناء على تراث مُحَمَّد الأدبي. ولقد تألقت من هؤلاء الرجال جماعة الإسلام المجلة الذين انبثقت منهم يوما طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي[1].

وكان طبيعيا أن نرى حركة واسعة كهذه الحركة لا تستطيع أن تؤلف بين هؤلاء الناس جميعا، وقليل جدا الذين سلموا من الصدمة التي منيت بها هذه الحركة بوفاة النبي، إذ لا يعزب

(١) Caetani, vol.ii.p.429.

عن البال كيف ظهر جليا أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضا تاما [1]. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التي كانت من قبل.

وهناك الدليل القاطع على ما تتسم به تعاليم مُحَمَّد من صفة تبشيرية أساسية، ذلك النبي الذي أصبح رمزا لأسلوب جديد. فمن الحق أن مُحَمَّدا لم يجد المجتمع في عصره مهيأ لقبول دعوة معلم جديد، فضلا عن دعوة من يأتيهم بلقب رسول الله (الذي لم يكن مفهوما لديهم). وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعا من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وعجمي أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام، فكرة عارضت في الصميم نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه الشخصي على شهرة أجداده، ومضى اقتداءً بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم الذي كان يلتمس فيه اللذة والسرور. والواقع أن المبادئ الأساسية في دعوة مُحَمَّد كانت تعارض كثيرا ما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار. وكانت الصداقة والعداوة في نظر العربي الجاهلي دينا يجد في أدائه عن رغبة، وكان يتباهى برد الشر بالشر، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف.

ولقد خاطب النبي أمثال هؤلاء بقول الله تعالى:{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون:٩٦]. فإذا أحبوا أن يغفر الله لهم فليعفوا وليصفحوا (سورة ٢٤ آية ٢٢) وأعدت للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس جنات عرضها السموات والأرض (سورة ٣ آية ١٢٨). وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية بين هؤلاء العرب الذين وجه إليهم مُحَمَّد رسالته أول الأمر. وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهه دينية نحو الخالق.. الشيء الذي كان يغرسه الإسلام في النفوس كما كانت اليهودية والمسيحية، إلا أنه لم يكن في الواقع معروفا لدى الوثنيين من العرب، فإن ما اتصفوا به من هذا الاعتماد على النفس، وذلك النقص في الروح الدينية،

---

(١) وليس هناك بحث لهذه المسألة أكثر شمولا وأعظم قيمة مما كتبه الأستاذ إجنانش جولد نصيهر في مؤلفه العلمي النفيس (**Muhammedanische Studien, vol.i**). وقد استثنينا له ما سنذكره من معلومات.

فضلا عن مباهاتهم البالغة بالجنس، لم يجعلهم مهيئين تمام التهيؤ لتلقي تعاليم الرجل الذي خاطبهم قائلا {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

ولم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التي جد الإسلام في فرضها على حريتهم في الحياة؛ فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي في الجاهلية، وكان النبي صارما شديدا في نواهيه الخاصة بكل منها. وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين، وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم؛ وهذا هو الغرض الذي قصدنا إلى توضيحه في الصفحات التالية: